مجلة روافد
للدراسات والأبحاث العلمية في العلوم الاجتماعية والإنسانية
المجلد 08 (01) جـوان 2024 ص ص 135-151

كشف الخداع باستخدام تقنية العبء المعرفي أثناء عملية التحقيق الجنائي

Detecting deception using cognitive load approach during the criminal investigation process

جمال محمد رشيد عط[1] ؛ فقيه العيد[2*]

[1] جامعة أبي بكر بلقايد- تلمسان (الجزائر)

البريد الالكتروني المهني: djamel.ott@univ-tlemcen.dz

[2] جامعة أبي بكر بلقايد- تلمسان (الجزائر)

البريدي الالكتروني المهني: laid.fekih@univ-tlemcen.dz

تاريخ الإيداع	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2024/02/04	2024/04/04	2024/06/01

الملخص: يتناول هذا المقال أهمية استخدام الأساليب المعرفية أثناء عملية التحقيق الجنائي للكشف عن الكذب والخداع من خلال إجراءات عملية تتمثل في فرض العبء المعرفي والضغط من خلال الطرح المكثف للأسئلة والأسئلة غير المتوقعة وجمع المعطيات والتركيز على بعض الصفات وغيرها من الأساليب، ومناقشتها في ضوء مختلف الدراسات السابقة، ويكمن الهدف في التعرف أكثر على أساليب كشف الكذب والخداع من خلال التركيز على بعض الاستنتاجات التي تفيد بطريقة أو أخرى في استخدام العبء المعرفي كأسلوب فعال في كشف الكذب أثناء عملية التحقيق الجنائي. حيث تم الاعتماد على المنهج الوصفي النظري وذلك بتتبع مختلف الأدبيات التي تناولت بالبحث والدراسة الأساليب المعرفية ومدى موثوقيتها ونسبة فاعليتها أثناء عملية التحقيق الجنائي. وخلص المقال إلى أن استخدام العبء المعرفي أثناء عملية التحقيق الجنائي مفيد نسبيا في كشف الخداع وإدانة المشتبه بهم أو براءتهم، كما أن الخداع ليس أكثر صعوبة من الناحية المعرفية من قول الحقيقة.

الكلمات المفتاحية: *كشف الكذب والخداع؛ العبء المعرفي؛ التحقيق الجنائي*

Abstract : This article treats the importance of using cognitive methods during the criminal investigation process to detect lying and deception, through practical procedures

* **المؤلف المرسل**

as imposing cognitive load, pressure through intensive and unexpected questions, focusing on collecting data, and some characteristics. The goal is to learn more about the methods of detecting lies and deception by focusing on some conclusions that are useful in one way or another in using cognitive load as an effective method in detecting lies during the criminal investigation process. Descriptive approach was relied upon by pursuing the various literatures that dealt with research and study of cognitive methods and their reliability and effectiveness during the criminal investigation process. The article concluded that using cognitive load during the criminal investigation process is relatively useful in detecting deception and convicting or acquitting suspects, and deception is not cognitively more difficult than telling the truth.

Keywords: *detecting lies and deception; cognitive load; criminal investigation*

مقدمة

من الصعب اكتشاف الكذب والخداع والتظليل بمجرد النظر إلى التعبير اللفظي أو غير اللفظي أثناء عملية التحقيق الجنائي، حيث هناك اعتقاد شائع مفاده أنه من الممكن معرفة ما إن كان الشخص كاذبا أم صادقا بالنظر فقط إلى الطريقة التي يتصرف بها أو السلوك الذي يظهره. ولهذا يعتقد الناس في مختلف الثقافات أن السلوكيات، مثل تجنب التواصل بالعين والحركات العصبية والتلعثم، أو تغيّر وضعيّة الرأس أو طريقة التنفس أو الوقوف بثبات دون حراك أو تكرار الكلمات والجمل التي قيلت قبل قليل، أو لمس وتغطية الفم أو تغطيّة بعض الأماكن في الجسم أو التلويح والتأشير باليدين أو الإسهاب في التفاصيل، أو صعوبة الكلام أو عدم القدرة على رواية القصّة مرّة أخرى أو يبدو الشخص أكثر حزنا من المعتاد أو يبدوا هادئا أكثر من اللازم، تعتبر من الدلائل والمؤشرات التي تفضح الكاذب أو المخادع.

ليس بالضرورة أن تكون هذه المظاهر السلوكية والنفسية دليلا على الكذب والتظليل، ففي الكثير من الأحيان تقترب التعابير غير اللفظية أكثر للتعبير عن الألم أو الخوف أو الخجل أو للتوضيح أكثر، أو الإرهاق أو تعبيرا عن القلق والتوتر الذي يعتري الشخصية.

حيث يرى "فريج وزملائه" Vrij et al. (2019) : "إن أحد المشاكل التي يواجهها الباحثون في مجال الكذب هي أن جميع الناس يعتقدون أنهم خبراء في كشف الكذب. لكن

الأخطاء في كشف الكذب لها تبعات جسيمة على المجتمع والناس الذين يقعون ضحايا للآراء والأحكام الخاطئة".

يعد تحليل الكذب أو الخداع تحديًا كبيرًا للمحققين خاصة في قضايا الجرائم. خاصة وأن الأبحاث الحديثة تظهر أن 60٪ من الناس يكذبون خلال محادثة نموذجية مدتها 10 دقائق (Bradberry, 2017). وكأن إضافة بعض التفاصيل الوهمية أثناء المحادثة أمر لابد منه لدى الكثير من الناس. إن التعرف على الكذب له صلة أكبر بالسلوك الخارجي والوظيفة المعرفية للشخصية والدماغ البشري. ولذلك لقد تم بالفعل تطوير طرق مثل جهاز كشف الكذب (polygraph)، جهاز كشف الكذب المعرفي (polygraph cognitive)، تخطيط كهربية الوجه (electromyography facial)، تتبع العين (eyetracking)، تحليل إجهاد الصوت والتصوير الوظيفي بالرنين المغناطيسي لتحليل الخداع (stress voice imaging resonance magnetic functional and analysis). بالرغم من المزايا الخاصة التي تتميز بها هذه الأساليب إلا أنها تواجه مشكلة شائعة تتعلق بالدقة في نسبة كشف الخداع بسبب اختلاف أنواع الكاذبين والمجرمين المتعلمين. ذلك أن التفكير حافز داخلي له علاقة بالخداع.

إن الدراسات التي تثبت أن المخادعين يمكنهم إخفاء علامات الارتباك والقلق بمهارة، تجيب عنها التساؤلات التي طرحتها مختلف الدراسات التي أجريت عن كشف الكذب. حيث يصرح "لوك" في خلاصة الدراسة التي قام بها Luke (2019)، أن مرد النسب المرتفعة التي سجلت في بعض التجارب في كشف الكذب إلى الحظ، وربما لا يوجد أدلة يعول عليها لكشف الكذب. ويقال عادة إن سلوكيات الشخص أو نبرة صوته يفضحان كذبه وخداعه، لكن عندما بحث العلماء عن الأدلة، لم يجدوا إلا القليل من السلوكيات التي ترتبط بالفعل بالكذب أو الصدق، وحتى السلوكيات التي تشير الإحصاءات أنها كثيرا ما كان يمارسها الكذّابون، لم يعتبرها العلماء مؤشرا دالا على الكذب. ويفسر ذلك بالقول:

"إن القليل من الدراسات تقارن بين المشاعر التي تنتاب المرء وبين التعبيرات التي يبديها ويراها الآخرون. فلا شك أن الكاذب يشعر بالقلق والتوتر، لكن مشاعره شيء وتصرفاته أمام الآخرين شيء آخر" (Luke, 2019, p. 666).

وفي دراسة أخرى قامت بها "ديباولو وآخرون" حول مقارنة سلوكيات الأشخاص عندما يصدقون القول وعندما يكذبون. حيث ركزت على 102 مؤشرا محتملا غير لفظي على الكذب، مثل تجنب التواصل بالعين وسرعة رمش العينين وارتفاع نبرة الصوت وهز الكتفين للتعبير عن اللامبالاة أو الجهل وتغيير وضع الرأس واليدين والذراعين والساقين وحركاتها. وخلصت إلى نتيجة تؤكد عدم ثبوت أي من تلك السلوكيات على أنها مؤشرا دالا على الكذب، وإن كان القليل منها ارتبط في بعض الحالات بالكذب، مثل اتساع حدقة العين والانخفاض في نبرة الصوت (DePaulo et al., 2003).

أغلب التجارب التي تستخدم لكشف الخداع تقوم على أساس طرفين: طرف مرسل يقوم بعملية السرد، والطرف الثاني مستقبل يقوم بعملية الانصات لما يقال ويلاحظ سلوكيات الطرف المرسل وهو الطرف الذي يجب عليه الحكم على الخداع. ومن هذه التجارب ما يعتمد على أجهزة كشف الكذب، أو التصوير بالرنين المغناطيسي الوظيفي، أو غيرها من الأجهزة الفسيولوجية. والبعض الأخر من هذه التجارب دون الاستعانة بأجهزة كشف الكذب. أغلب هذه التجارب توصلت إلى متوسط دقة قدره 57% في اكتشاف السردية الكاذبة، وهي نتيجة متقاربة جدا مع نتائج الدراسات التي استخدمت أجهزة كشف الكذب في اكتشاف الخداع والتي توصلت إلى متوسط قدره 56.6%. (Hubbell, Mitchell, & Gee, 2001, p. 115).

تشير هذه النتائج إلى أنه مهما تعددت الوسائل في كشف الكذب والخداع تبقى غير دقيقة، وبالرغم من أهمية ما توصلت إليه هذه الدراسات إلا أنه من الصعب للغاية كشف الخداع بشكل تام وفي جميع الحالات، أو من الصعب استنتاج الكذب من خلال الإشارات

السلوكية المؤثرة. لأن جميع إشارات الخداع العامة التي تم تحديدها غير ثابتة وغير صادقة في كل الأحوال، أي ليس هناك مؤشرات سلوكية فريدة أو خاصة أو نموذجية بالكذب أو الخداع بشكل تام.

مما سبق ذكره يتضح لنا جليا أن عملية كشف الكذب والخداع أثناء عملية التحقيق الجنائي تحتاج إلى المزيد من الدراسات والبحوث لتذليل الصعوبات أمام المحققين، فيا ترى إلى أي مدى تساهم تقنيات العبء المعرفي في الكشف عن الكذب والخداع والتظليل أثناء التحقيق الجنائي؟

1. مفهوم العبء المعرفي

يعرف علي حسن (2005) العبء المعرفي على أنه "الجهد المبذول من المتعلم للتعامل مع الأنشطة والمعلومات والمشكلات المفروضة على النظام المعرفي الخاص به، وبصفة خاصة على الذاكرة العاملة خلال القيام بمهمة معينة." أما القطامي (2002) يعرف العبء المعرفي على أنه "الكمية الكلية من النشاط الذهني أثناء المعالجة في الذاكرة العاملة خلال فترة زمنية معينة، ويمكن قياسه بعدد الوحدات والعناصر المعرفية التي تدخل ضمن المعالجة الذهنية في وقت محدد." يعرف "فان آكر وزملائه" Van Acker et al. (2018) العبء المعرفي على أنه ذلك الجهد الذهني الذي يبذله الأفراد عندما يُطلب منهم القيام بأنشطة معرفية معينة، ويقوم العبء المعرفي على استخدام الذاكرة العاملة والتحفيز المعرفي لمعالجة المعلومات أثناء تنفيذ مهام متعددة ومقيدة.

تشير هذه التعاريف أن العبء المعرفي هو مجموعة من الأنشطة الذهنية التي تقوم على تحفيز المعلومات والمعارف المخزنة في الذاكرة، ومن ثم استدعائها للقيام بهمام معينة. فالعبء المعرفي إذن هو جهد عقلي يقوم به الفرد عندما يُطلب منه القيام بنشاط يقوم على أساس توظيف الملكات العقلية العليا، أو بمعنى أصح استخدام الذاكرة العاملة والمتطلبات المفروضة على المكتسبات المعرفية عند تنفيذ مهام، وفي الكثير من الآحيان

يتم الاعتماد على عنصر واحد من المعلومات. ينقسم العبء المعرفي إلى نوعين: العبء المعرفي الجوهري أو الداخلي والعبء المعرفي الخارجي:

يشير مصطلح "العبء المعرفي الجوهري أو الداخلي" Load Cognitive Intrinsic حسب "مرينبوار وسويلار" Merrienboer and Sweller (2005) إلى المطالب المتأصلة للرصيد المعرفي الذي يمتلكه الشخص والذي يرتبط بالانتباه والذاكرة العاملة اللازمة لنسج قصة كاذبة متكاملة الأركان، حيث يتم تنظيم هذه المطالب المتأصلة حسب كيفية إعداد الرسالة الكاذبة أو بإيصال الرسالة إلى الهدف. أي يتعلق العبء المعرفي الجوهري بالمطالب التي تفرضه نوع وطبيعة المعلومات والمهام المعقدة أثناء معالجة المعلومات، وبمعنى آخر يشير إلى عدد العناصر التي يتم معالجتها في وقت واحد على مستوى الذاكرة العاملة فيحدث تفاعل هذه العناصر مع بعضها البعض مما يسبب العبء المعرفي.

أما "العبء المعرفي الخارجي" Load Cognitive Extraneous يتعلق بما تفرضه نوع وطبيعة المعلومات التي تحتاج للمعالجة والتي ترتبط بالمهام المعقدة أثناء معالجة المعلومات. أي ذلك الضغط المعرفي الذي يؤدي إلى حضور أو غياب أية معلومة مرتبطة بالكذبة التي يقوم بنسجها نتيجة لعوامل خارجية كعامل الوقت مثلا، مما يصعب الأمر على الفرد بأن يقوم بتقديم قصة متسقة في نهاية المطاف.

ومن العوامل التي تزيد من العبء المعرفي للكذب والخداع حسب DePaulo et al. (2004) والتي تجعل الكاذب يبذل جهدا معرفيا كبيرا حتى يتمكن من تحضير قصة كاذبة ما يلي:

- تفاصيل القصة الكاذبة، حيث يجب على الفرد أن يحافظ على تماسك تفاصيل القصة شكل متسق.
- عملية السرد، حيث يجب أن تبقى عملية السرد متسقة مع المعطيات الخارجية للكذبة.

- عملية الإخفاء والتستر، وهنا يجب عليه ألا يلفت انتباه المحقق إلى عناصر مشكوك فيها تجعل المحقق ينتبه إليها وبالتالي إمكانية كشفها.

أما الظهور بمظهر الصادق أثناء رواية قصة كاذبة للآخر تفرض على الفرد مزيدا من العبء المعرفي حسب "فريج" (Vrij et al. (2010 تتمثل أساسا في التحكم في الجوانب النفسية لشخصيته كالهدوء والاتزان الانفعالي والسيطرة على اندفاعاته والتناسب بين مختلف المثيرات وردود الفعل التي يبديها.

يشير "فان كوبن" (Koppen Van (2012 إلى بعض العوامل التي تضيف إلى العبء المعرفي في قول الحقيقة تتمثل أساسا في تنشيط الذاكرة العاملة التي تفرض على الفرد استرجاع الذكريات التي لم يتم الوصول إليها منذ فترة طويلة أو التفاصيل التي تلاشت منذ زمن بعيد، والتدرب على تزييف المعطيات بشكل جيد مقارنة بالحقيقة المقابلة لها، وبذل الكثير من الجهد لتفادي التناقض والغموض.

2. أساليب العبء المعرفي أثناء عملية التحقيق الجنائي

هناك العديد من التقنيات والأساليب المعرفية الحديثة في اكتشاف الخداع كإجراء المقابلات والتصوير العصبي والاجراءات الفسيولوجية، فجميعها يركز على علامات ومؤشرات النشاط المعرفي الخاص بالكذب أو قول الحقيقة، وكلها تطمح إلى تطوير تقنيات دقيقة جدًا في كشف الكذب التلقائي أو قول الحقيقة.

انطلاقا من فكرة أن صياغة الكذبة في حد ذاتها قد تكون مرهقة معرفيا، تم التركيز على الجانب المعرفي أثناء عملية التحقيق الجنائي كأسلوب فعال في كشف الجناة. قول الحقيقة مثلا لا يحتاج من الشخص وقتا طويلا حتى يقدم إجابة منطقية على أي سؤال، على العكس تمامًا، فمن يكذب أو يضلل أو ينسج قصة مخادعة فهو غالبا يضطر إلى أن يختلق تفاصيل إضافية، الأمر الذي يجعله عرضة لتقديم معلومات لا تتوافق مع حديثه إذا ما استمر في الحديث لفترة أطول. وبذلك يتجلى العبء المعرفي أثناء عملية التحقيق

الجنائي في الانبثاق العفوي للأسئلة، وتحديد المواضيع التي يجب متابعتها وطلب توضيحها. حيث يتم أولا الاستماع لما يقوله الشخص الذي يتم التحقيق معه ومحاولة تذكر كل ما قاله مستعينين بوسائل متعددة بهدف الرجوع إليها عند الحاجة، تم يُطلب منه أيضًا تدوين الملاحظات وصياغة فرضيات معينة تصف الحدث أو الواقعة بمختلف تفاصيلها.

تشير دراسة "سبنس" (Simpson (2008 أن الكاذب عادة ما يكون أقل عفوية من الصادق. وأن الكاذب أكثر ميلًا من الصادق في مراقبة سلوكه والتحكم فيه حتى يتحكم في الخداع وهو الأمر الذي يجب أن يتطلب جهدًا معرفيا أكبر، حيث يجد الكاذب نفسه مرغما على قمع الحقيقة أثناء كذبه مما يتطلب منه أيضا التركيز الزائد. فالمشتبه به يجهد نفسه في التفكير عندما يكذب، وأقل إجهادا لتفكيره عند قول الحقيقة. وتتجه دراسة "ولتشيك" (Walczyk (2005 في نفس الاتجاه حينما يؤكد أنه غالبا ما يكون قول الحقيقة تلقائيًا، بينما سرد الأكاذيب يكون مقصودًا ومتعمدًا، وبالتالي يتطلب جهدًا عقليًا كبيرا. لقد حاول "ولتشيك" وصف أسلوب جديد يقارن بين الشهادات الحقيقية والملفقة التي تم تأكيدها سابقا أثناء عملية التحقيق الجنائي على أساس التمييز بين الادعاءات الكاذبة نتيجة الممارسة الطويلة للكذب إلى حد الاعتقاد بصحته وبين الادعاءات الكاذبة الناتجة عن التأثيرات الإيحائية أو الظرفية. ومن بين الأساليب الأكثر انتشارا لزيادة العبء المعرفي أثناء عملية التحقيق الجنائي ما يلي:

2. 1. جهاز كشف الكذب أو المخطط المتعدد (Polygraph)

جهاز كشف الكذب هو جهاز يتم تطبيقه لكشف الخداع، حيث يسجل بشكل مستمر العديد من الاستجابات على شكل استثارة نفسية وفسيولوجية وفقًا لمعدل النبض، وضغط الدم، ومعدل التنفس، واستجابة الجلد الجلفانية من خلال الموصلات السلكية بالجلد. نموذج الأسئلة الأكثر شيوعًا المستخدم للكشف عن الأكاذيب هو نموذج تقنيات الأسئلة الموجهة Question Technique (CQT Controlled). في هذا الاختبار النموذجي، يتم اختبار

الممتحن لجمع المعلومات الأساسية لضبط الأسئلة الموجهة. بمجرد اختيار الأسئلة، يقوم الفاحص بمعاينتها مع الممتحن للتأكد من فهم الأسئلة وعدم مفاجأة الممتحن عند طرحها لاحقًا. أثناء الاختبار يتم مثلا طرح أسئلة بسيطة كذكر الاسم إلى جانب الأسئلة التي يميل معظم الناس الكذب أثناء الإجابة عنها، مثلا سؤال الممتحن ما إذا سبق له وأن قام بسرقة شيء ما في حياته، وفي الأخير يتم استكمال باقي الأسئلة المرتبطة بالقضية المركزية، وأن الأسئلة عادة ما تثير إجابات مختصرة.

حسب نتائج مختلف الدراسات التي قام بها "ليكن" Lykken (1998) حول فاعلية الجهاز في كشف الكذب، لاحظ أن الكاذب يبدي مستوى زائد من الإثارة حول الأسئلة المرتبطة بالقضية بدلاً من التحكم في الأسئلة، في حين أن الفرد البريء يبدي مستوى زائد من الإثارة حول الأسئلة غير المرتبطة بالقضية. ومن بين الانتقادات التي وجهت لهذا الاختبار أنه مضلل إلى حد ما، إذ يحتوي النموذج على نسبة عالية من الإيجابات الكاذبة من جهة كما لا توجد ردود فعل فيزيولوجية محددة مرتبطة بشكل مباشر بالكذب وبالتالي قد يصنف الفرد الصادق بشكل خاطئ على أنه كاذب. حسب النتائج التي توصل إليها "سيمور وكارلان" (Seymour and Kerlin 2008) أدت مختلف الانتقادات التي وجهت لهذا الجهاز إلى تعديل الأسئلة التي يجب توجيهها للممتحن، فظهر ما يسمى اختبار معارف المذنب Test Knowledge Guilty The (GKT) للتحكم أكثر في الأسئلة وتقليل عدد الإجابات الكاذبة، وبالتالي إثبات التعرف على المذنب من خلال الإشارات المتنوعة لوقت الاستجابة على الأسئلة، ومع ذلك يبقى هذا الاختبار محدود في كشف الخداع.

إن المتتبع لنتائج هذه الدراسات يلاحظ أنها حاولت تحديد مؤشرات الخداع تجريبيًا. وقد طبقت سلسلة من الأساليب المنهجية المختلفة مثل تحليل السلوك غير اللفظي، وتحليل المحتوى، والتحليل اللغوي القائم على الكمبيوتر، وأجهزة كشف الكذب، وتخطيط أمواج

الدماغ، والتصوير العصبي وغيرها من الأساليب والتقنيات إلا أن نسبة كشف الكذب العالية التي تصل إلى 90% أو تفوقها لا زالت بعيدة المنال، فلو كان الكذب أفضل بكثير، لكان قول الحقيقة أقل شيوعًا، ولو كانت أجهزة الكشف أفضل بكثير، لكان الكذب والخداع أقل استخداما.

2. 2. طرح الأسئلة غير متوقعة

إن فكرة طرح الأسئلة غير المتوقعة حسب "فريج وزملائه" (8Vrij et al. (200 برزت من فرضية أن الشخص الذي ينوي الكذب يكون قد وضع احتمالات للأسئلة التي من الممكن أن تطرح عليه، وعليه قد يحضر مسبقا الأجوبة عن الأسئلة المتوقعة من طرف المحققين فله الوقت الكافي لتنميق وتنسيق الإجابات حتى تخرج متسقة مع كذبه، ولا يجد أية صعوبة في استذكارها أثناء عملية التحقيق فيكون من الصعب اكتشاف زيفه وكذبه، وعليه تعتبر الأسئلة غير المتوقعة مفاجأة ومربكة بالنسبة للكاذب، وعليه سيحرم من الوقت الذي يسمح له بترتيب الأجوبة وجعلها منسجمة مع كذبه.

التكرار

في هذه الطريقة حسب "سبورر وشوانت" (7Sporer and Schwandt (200 يطلب من المشتبه به استعراض كل المعلومات التي يعرفها عن الحادث أو الواقعة أو القضية محل التحقيق، والإدلاء بكل ما يتذكره عن هذا الأمر، وبعد ذلك يطلب منه تكرار كل ما ذكره مرّة أخرى، فعملية إعادة الإدلاء بما صرح به سلفا قد يسقط الكاذب في الفخ ويجتزئ أو يضيف بعض المعطيات دون قصد منه وبالتالي قد يفتضح أمره.

2. 3. تداعي الأسئلة أثناء الاستجواب

يشير تداعي الأسئلة حسب "فيشر وزملائه" (Fisher et al. (2014 إلى تلك الأسئلة الجديدة التي تنبثق من الأسئلة السابقة التي ترتبط بتوضيح حيثيات أو وقائع أو معطيات معينة يجب متابعتها وتوضيحها أثناء المقابلات، فيجب على المحقق أولا بناء

العلاقة وصياغة الأسئلة المناسبة، ثم الاستماع بعمق إلى ما يقوله المشتبه به وتذكره بدقة وتدوين الملاحظات وصياغة فرضيات انطلاقا من الأحداث الموصوفة. وفي هذا الصدد يؤكد "دنباي وزملائه" (Danby et al. (2017 على المحقق أن يركز على الأسئلة المفتوحة وتسجيلها للعودة إليها بهدف تحليلها وتقييمها وقراءة ما وراء السطور والتعرف على مدى صدقيتها. تؤدي الأسئلة المفتوحة عادةً إلى سرد إجابات مفصلة وحرة من الأشخاص الذين تمت مقابلتهم. ومن ثم فإن طرح الأسئلة المفتوحة يعد سمة مهمة للمقابلة الاستقصائية، وعلى المحقق أثناء التحقيق الجنائي التذكر الجيد للتفاصيل التي يقدمها الأشخاص اللذين يحقق معهم لأن غالبا ما تكون السردية الكاذبة تفتقر إلى التفاصيل وتكون المعلومات غير دقيقة في الغالب. يعتبر هذا الفقر في التفاصيل والمعلومات نتيجة للعبء المتزايد الذي له تأثير أكبر على الكاذبين منه على رواة الحقيقة لأن الكاذبين يجدون بالفعل أن إجراء المقابلات معهم أكثر إرهاقًا عقليًا من رواة الحقيقة.

مما سبق ذكره يتضح لنا جليا أن عملية تتبع أو مراقبة التعبير اللفظي أو غير اللفظي لشخص ما يفترض أنه يكذب من شأنه أن ينشط تلقائيًا المفاهيم المعرفية المرتبطة بالخداع، وأن عملية تتبع أو مراقبة شخص ما يقول الحقيقة من شأنه أن ينشط المفاهيم المعرفية المرتبطة بالحقيقة. أي البعد المعرفي في نهاية المطاف يلازم كل من الكذب والخداع أو قول الحقيقة.

3. أهمية العبء المعرفي أثناء عملية التحقيق الجنائي

تركز الأساليب المعرفية للكشف عن الخداع أثناء التحقيق الجنائي على مبدأ جمع أكبر قدر من المعلومات بدل التركيز فقط على "قول الحقيقة" حسب "فريج" (Vrij et al. (2010. مثلا عملية "اختراع قصة" تعتبر أكثر صعوبة من الناحية المعرفية من مجرد وصف الحقيقة لأحداث واقعية، بمعنى يجب أن تكون الكذبة معقولة ومتسقة مع كل ما يعرفه المتهم أو ما قد يتعلمه، وعلى الكاذب أن يتذكر افتراءاته بشكل جيد حتى يتمكن من

تقديم بيانات متسقة في المستقبل، ويجب أن يراقب سلوكه جيدا حتى لا يكتشف خادعة، وهذا ما يزيد من قلقه وتوتره.

أوضح الباحثون النفسانيون المعرفيون في مختلف البحوث التي قاموا بها "غمبوس ووالشك وسبورر" أن عملية الكذب تتطلب من الفرد الوصول إلى عمليات التحكم التنفيذية التي تنطوي على قمع الحقيقة، والبحث عن المعلومات في الذاكرة طويلة المدى، ومن تم تجميع كذبة في الذاكرة العاملة (Gombos, 2006; Walczyk et al., 2013, 2014; Sporer, 2016). أي أنه غالبا ما يكون الكذب أكثر تطلبًا من الناحية المعرفية من قول الحقيقة، وعليه قد تكون الوظائف المعرفية حاسمة للقدرة على الكذب بشكل مقنع. بشكل عام لا يمكن للكاذب الاعتماد فقط على المعلومات من ذاكرته الخاصة بل عليه في المقام الأول اختراع الكذبة وتذكر ما قال لإعادة سردها بدقة أو الرجوع إليها لاحقًا. ولذلك سيحتاج الكاذب إلى مراقبة وتتبع معطيات الحقيقة والكذب في الوقت نفسه حتى لا يقع في الفخ، وذلك يتطلب منه التمتع بقدرات معرفية هائلة حتى لا يكشف أمره مما هو غير متاح للغالبية من الناس.

حسب "إيفنس" Evans et al. (2013) تتمثل إحدى تقنيات "زيادة العبء المعرفي - load cognitive increasing" في مطالبة الأشخاص الذين تمت مقابلتهم بسرد القصة من النهاية إلى البداية أي بطريقة معكوسة بدلاً من الترتيب الزمني. تؤكد الدراسات السابقة أن هذه التقنية تزيد من ارتفاع مؤشرات الكذب والخداع وتمنح المحقق الدقة في اكتشاف الصدق، تساهم هذه التقنية النفسية المعرفية أثناء التحقيق في إبراز التناقض والتباين في حديث المخادع الكاذب أو التجانس والانسجام في أقوال الصادق الذي يقول الحقيقة. كما أدت هذه التقنية إلى تحسين قدرة مراقبي الشرطة على اكتشاف الخداع ولم يؤدي إلى تحيز في الاستجابة.

بالإضافة إلى ذلك قدم "ولزيك وزملائه" (Walczyk et al. (2012 تقنية معرفية أخرى للمقابلة أثناء التحقيق الجنائي في إطار طريقة "زيادة العبء المعرفي" تعزز من القدرة على اكتشاف الصدق من الكذب تسمى بـــ (تأكيد الصدق المقيد بالوقت - Con-TRI Confirmation -Integrity Restricted Time) تقوم هذه التقنية على الضغط من خلال الأسئلة، أي طرح مجموعة أسئلة تفضي في النهاية إلى نتيجتين إما أنها تزيد من العبء المعرفي عند الكاذب أو أنها تخفف منه عند قول الحقيقة ذلك أن الإجابة تكون سهلة عند الصادق.

إن عملية تحفيز الذكريات وتنشيطها من خلال 'الاستخدام الاستراتيجي للأدلة' (strategic-use-of-evidence) أو طريقة "تأكيد الصدق المقيد بالوقت" (Time TRI-Con approach restricted integrity confirmation) والتي تعتمد على تدوين وقت الاستجابة والتناقضات عبر الإجابات كإشارات للكذب أو التظليل أو الخداع، مهمة جدا أثناء التحقيق الجنائي من حيث أنها تنشط المعلومات المرتبطة بالحدث في الذاكرة. يسبب هذا التحفيز صعوبات ومشاكل للمتهم الذي يحاول توجيه المعلومات والتحكم فيها تفاديا لتسريبها أو تناقضها.**(**Walczyk et al., 2013**)**

إن جل الأساليب المعرفية سالفة الذكر قد تنجح في إحداث تباين سلوكي بين الشخص الكاذب والشخص الصادق، حيث تزيد من لجوء الشخص الكاذب إلى الخداع كما تزيد من قوة استدعاء المعلومات للشخص الصادق من جهة وترفع دقة الملاحظة للمحقق من جهة أخرى. وعليه نستنتج أن الإجراءات أو الأساليب غير المباشرة للكشف عن الخداع هي أكثر دقة بكثير من الإجراءات المباشرة. أي أن الأساليب غير المباشرة تفرض على الشخص أن يكون غافلا وليس لديه متسع من الوقت ليفكر في فنيات جديدة يخدع بها الآخر أو تنميق أقواله وجعلها أكثر اتساقا مع الموضوع.

4. صفات المخادع أثناء عملية التحقيق الجنائي

تعد الحاجة إلى الكشف الدقيق عن الخداع أمرًا مهما وعليه تنطلق ممارسات المحققين في كشف الخداع من فرضية أن الكذابين سيظهرون إشارات قائمة على التوتر لأنهم يخشون أن يتم القبض عليهم ويشعرون بالذنب تجاه الكذب. دفعت هذه الفكرة إلى البحث عن مؤشرات سلوكية توضح أكثر عملية التظليل والخداع، وعليه قاموا بمراقبة وتتبع بعض التعابير اللفظية وغير اللفظية كتغيرات الوضعية، وابعاد النظر، وحركات القدم واليد، وغير ذلك بدون نجاح كبير في تعميم مثل هذه التعابير على جميع الأشخاص سواء رواة الحقيقة أو الكاذبين.

تشير الدراسات التي قام بها كل من "بارقان وبيلر" (Burgoon and Buller 2008) إلى تحديد مجموعة من المواصفات ترتبط بالخداع الاستراتيجي أثناء فرض العبء المعرفي على الكاذبين، يؤدي إلى الرفع من نسبة المهام المعرفية التي تُطلب من المشتبه به أن يقوم بها تزامنا مع عملية التحقيق إلى إغفال المشتبه به بعض السلوكيات، وعدم اليقين والغموض في تفاصيل السرد الكاذب، وعدم فورية الاستجابات، ومحاولة تغير الموضوع أو عدم التورط في الحديث عن الموضوع الأصلي. بالإضافة إلى ما سبق لقد تبين للمحققين في ظل فرض العبء المعرفي على الكاذبين بعض المميزات كزيادة حركات اليد، وزيادة الرمش واتساع حدقة العين، وزيادة حدة الصوت والأخطاء المرتبطة باللغة والكلام، والتردد والتناقض بين ما هو لفظي وغير اللفظي.

عموما تشير نتائج مثل هذه الدراسات إلى أنه يمكن تحسين تقنيات المقابلة لزيادة العبء المعرفي على المخادعين، مما يساهم في التمييز بشكل أفضل بين الكاذبين وغير الكاذبين، وذلك بمحاولة التعرف أكثر على النوايا الحقيقية والكاذبة للمجرمين ليس بالتركيز فقط على تقييم الأقوال حول أحداث الماضي، بل التركيز أيضا على النوايا المرتبطة بخطط المستقبل.

أشارت الدراسة التي قام بها "راسات" (Ekman (2018 أن المجرمين الذين يميلون إلى استخدام الخداع أثناء عملية التحقيق الجنائي عادة ما يكونون أكبر سناً وأكثر ذكاءً من الأشخاص الآخرين من المجرمين، وأنهم نشأوا في بيئة تشجع على عملية الكذب والخداع، وباستطاعتهم التأقلم والتكيف مع مختلف المتطلبات الاجتماعية كما يمتلكون القدرة على التخطيط، ويدركون متى يجب عليهم الالتزام بالصمت. تؤكد مثل هذه الدراسات أنه عندما يتم تحليل المعطيات التي يعتمد عليها الشخص الذي نشأ في بيئة تعتمد على عملية الخداع وتعتبره أسلوبا للحصول على مختلف المكاسب، يصعب تحديد العناصر التي تحدد التباين بين الأفعال والأقوال للمخادع. لأن الكذب والخداع هنا جزءًا من الحياة اليومية. فيضطر الشخص استخدام الكذب لتجنب الإحراج وتقديم انطباعات إيجابية أو الحصول على منافع ومكاسب مادية أو تلبية لرغبات معينة، فتراه يلجأ إلى الكذب بشكل عفوي ودون ندم، خاصة وأن العرف الاجتماعي في بعض الأحيان يشجع الأفراد في مواقف مختلفة على سلوكيات التمثيل والتظليل لتحقيق بعض المكاسب، ونتيجة لترسيخ هذا السلوك الذي يتسم بالخادع على مستوى الشخصية يصبح سمة يصعب إدراكها أو اكتشافها إلا بدراسة معمقة عبر دراسة الحالة.

الخلاصة

كخلاصة لما سبق ذكره، يمكن القول أن الاعتماد أكثر على التقنيات النفسية المعرفية لكشف الكذب والخداع أثناء عملية التحقيق الجنائي، ومن بينها تقنية "العبء المعرفي" أمر محبذ وضروري، ذلك أن الكذب أثناء المقابلة أو التحقيق الجنائي يفرض على الجاني بذل الكثير من الجهد من الناحية المعرفية أكثر من الجهد في قول الحقيقة، أي أن زيادة العبء المعرفي للأشخاص الذين تتم مقابلتهم بشكل موجه أثناء الاستجواب يجب أن يكون أكثر ضررًا نفسيا على المخادعين الكاذبين، بحيث يمكن ملاحظة مجموعة من

المؤشرات والعلامات على المتهم أو الجاني كانعكاس مباشر لذلك الحمل الزائد الذي يرهقه مقارنة بقول الحقيقة.

على الرغم من وجود العديد من الأساليب للكشف عن الأكاذيب والخداع أثناء عملية التحقيق الجنائي سواء بناءً على الملاحظة البصرية للشخص الذي يتم استجوابه أو التسجيل أو أجهزة كشف الكذب وغيرها من الأساليب والاختبارات، إلا أن أيًا منها ليس شاملا وموضوعيا وصادقا بشكل مطلق بل هناك دائما نسبية معينة. ومع ذلك، فإن الانتباه أكثر لسلوك الشخص الذي يتم استجوابه كتنغيم الصوت، والإيماءات، والتغيرات في تعبيرات الوجه أمر ضروري لوضع احتمالات وفرضيات متنوعة تستوجب على المحقق التعمق أكثر في عملية التحقيق وبالتالي الوقوف على الحقيقة المنشودة.

قائمة المراجع:

المراجع باللغة العربية:

على حسن رمضان. (2016). العبء المعرفى وعالقته بالتفكير الناقد لدى طالب الجامعة، مج 22، ع1، *دراسات تربوية واجتماعية*، مصر. 22 (1)، 493-534

القاطمي يوسف. (2013). *استراتيجيات التعلم والتعليم المعرفية*، ط 1. دار المسيرة. عمان.

المراجع باللغة الأجنبية:

Aronson, E., and Carlsmith, J. M. (1968). Experimentation in social psychology .*The Handbook of Social Psychology*.79–1 ,2 ,

Bradberry, T. (2017). *Sixty percent of your colleagues are lying to you. Huffpost.*

Danby, M. C., Sharman, S. J., Brubacher, S. P., Powell, M. B., & Roberts, K. P. (2017). Differential effects of general versus cued invitations on children's reports of a repeated event episode. *Psychology, Crime & Law, 23*(8), 794–811. https://doi.org/10.1080/1068316X.2017.1324028

DePaulo, B. M., Lindsay, J. J., Malone, B. E., Muhlenbruck, L., Charlton, K., and Cooper, H. (2003). Cues to deception. *Psychol. Bull.* 129, 74–118. https://doi.org/10.1037/0033-2909.129.1.74

Ekman, P. (2018). *Psychology of Lies. Lie to me if you can*. SPb. Peter.

Evans, J. R., Michael, S. W., Meissner, C. A., and Brandon, S. E. (2013). Validating a new assessment method for deception detection: introducing a psychologically based credibility assessment tool. *J. Res. Mem. Cogn.* 2, 33–41. https://doi.org /10.1016/j.jarmac.2013.02.002

Fisher, R. P., Compo, N. S., Rivard, J., & Hirn, D. (2014). Interviewing witnesses. *The Sage Handbook of Applied Memory*, 559–578. https://doi.org/10.4135/9781446294703.n31

Gombos, V. A. (2006). The cognition of deception: the role of executive processes in producing lies. *Genet. Soc. Gen. Psychol. Monogr*. 132, 197–214. https://doi.org /10.3200/MONO.132.3.197-214

Hubbell, A. P., Mitchell, M. M., & Gee, J. C. (2001). The relative effects of timing of suspicion and outcome involvement on biased message processing. Communication Monographs, 68,115–132.

Luke, T. J. (2019). Lessons from Pinocchio: Cues to deception may be highly exaggerated. Perspectives on Psychological Science, 14(4), 646–671.
https://doi.org /10.1177/1745691619838258

Simpson J. R. (2008). Functional MRI lie detection: too good to be true? *J. Am. Acad. Psychiatry Law*, 36, 491–498. http://hdl.handle.net/10822/960374

Sporer, S. L., & Schwandt, B. (2007). Moderators of nonverbal indicators of deception: A meta-analytic synthesis. *Psychology, Public Policy, and Law, 13*(1), 1–34. https://doi.org/10.1037/1076-8971.13.1.1

Van Koppen P. J. (2012). Deception detection in police interrogations: closing in on the context of criminal investigations. *J. Appl. Res. Mem. Cogn.* 1, 124–125 10.1016/j.jarmac.2012.04.005 [CrossRef] [Google Scholar]

Vrij A., Mann S., Fisher R., Leal S., Milne B., Bull R. (2008). Increasing cognitive load to facilitate lie detection: the benefit of recalling an event in reverse order. *Law Hum. Behav.* 32, 253–265. https://doi.org/10.1007/s10979-007-9103-y

Vrij A., Granhag P. A., Porter S. (2010). Pitfalls and opportunities in nonverbal and verbal lie detection. *Psychol. Sci. Public Interest* 11, 89–121 https://doi.org /10.1177/1529100610390861

Vrij, A., Leal, S., Hartwig, M., & Granhag, P. A. (2019). Reading Lies: Nonverbal Communication and Deception. Annual Review of Psychology. Vol. 70, 295-317 https://doi.org /10.1146/annurev-psych-010418-103135

Walczyk J. J., Schwartz J. P., Clifton R., Adams B., Wei M., Zha P. (2005). Lying person to person about life events: a cognitive framework for lie detection. *Pers. Psychol.* 58, 141–170 https://doi.org /10.1111/j.1744-6570.2005.00484.x

Walczyk, J. J., Mahoney, K. T., Doverspike, D., and Griffith-Ross, D. A. (2009). Cognitive lie detection: response time and consistency of answers as cues to deception. *J. Bus. Psychol.* 24, 33–49. https://doi.org /10.1007/s10869-009-9090-8

Walczyk J. J, et al. (2013). Advancing lie detection by inducing cognitive load on liars: a review of relevant theories and techniques guided by lessons from polygraph-based approaches. *Front Psychol.* 4, 1664–1078. https://doi.org/10.3389/fpsyg.2013.00014